الورقة الرابعة

أنماط إدارة المعركة والتحول في الأهداف

أمين حطيط*

مقدمة

في توقيت انتقالي حرج وفي الأسبوع الأخير من عام ٢٠٠٨ شنت إسرائيل عدوانا واسع النطاق على قطاع غزة الذي كانت قد انسحبت منه في العام ٢٠٠٥، وعللت حربها بأسباب شتى لم تثبت على واحد منها، بل كانت تتدحرج الأهداف مع شمس كل يوم تطلع على القوات الإسرائيلية في الجو والبر والبحر وهي تمعن في القتل والتدمير في القطاع، واستمر العدوان لمدة ٢٢ يوماً استعملت فيها إسرائيل شتى أنواع الأسلحة ولجأت إلى مختلف الأساليب النارية والميدانية تبدل خطة وتعدل أخرى إلى أن اضطرت إلى اتخاذ قرار بوقف إطلاق النار من جانب واحد عملت به في ١٨/ ١/ ٢٠٠٩، وعندها طرحت الأسئلة: هل حقق العدوان أهدافه؟ ولكن وقبل ذلك لا بد من السؤال لماذا كان هذا العدوان أصلا؟ وما هي الأهداف الحقيقية التي سعت إسرائيل إليها؟ وكيف أدارت معركتها فيه وكيف واجهتها المقاومة.

أسئلة تطرح وسنحاول الإجابة عليها في هذه الورقة بعد تمهيد لها بعرض ما كان قائماً قبل العدوان وكيف تم التحضير له قبل انطلاقه.

استعدادات ما قبل الحرب: التهدئة والحصار

أدركت حركة المقاومة الفلسطينية الإسلامية "حماس" أن هناك خطة تستهدفها في غزة تنفيذاً لخطة دايتون الأمنية، فاستبقت المخططين بعمل أمني سريع في حزيران/ يونيو من العام ٢٠٠٧ أدى إلى إمساكها منفردة بزمام القطاع وطرد ممثلي السلطة الفلسطينية منه، والاستئثار بإدارة القطاع عبر الحكومة التي كانت انبثقت عن الانتخابات النيابية، وأعطت لحركة حماس أكثرية برلمانية مكنتها من الحكم، وكان في ذلك تحول سياسي وأمني

* **د. أمين حطيط:** عميد ركن، وباحث عسكري واستراتيجي- لبنان.

في قطاع غزة رفضته السلطة الفلسطينية المركزية في رام الله واعتبرته انقلاباً على الشرعية حيث أقدم رئيسها محمود عباس على إقالة حكومة حماس برئاسة إسماعيل هنية وعين بدلاً منها حكومة لتصريف الأعمال دون أن يعرضها على المجلس التشريعي بسبب خشيته من سقوطها، حيث إن الأكثرية النيابية هناك هي لحركة حماس، وهكذا نشأت حكومتان فلسطينيتان تتنازعان الشرعية، واحدة مقالة ويدعمها البرلمان وتمارس السلطة في قطاع غزة، وأخرى معينة بعيداً عن ثقة البرلمان وتمارس السلطة في الضفة الغربية.

تمسكت حكومة حماس في غزة بموقفها من إسرائيل رافضة الاعتراف بها ومعتبرة المقاومة نهجا استراتيجيا لتحقيق الأهداف الوطنية في التحرر وتنفيذ حق العودة للاجئين، وبعد أسابيع قليلة على قيام هذا الوضع المستجد للمرة الأولى منذ ١٩٦٧م، أي ظهور منطقة فلسطينية تديرها سلطة ترفض الاعتراف بإسرائيل، بدأت المناوشات وأعمال المقاومة المنطلقة من غزة، وبخاصة اللجوء إلى الصواريخ رداً على الاعتداءات الإسرائيلية على القطاع، وتفاقمت العمليات العسكرية الإسرائيلية ضد هذا القطاع إلى الحد الذي أعلنت فيه إسرائيل في شباط/فبراير ٢٠٠٨ عن النية بأحداث "محرقة غزة" والتخلص من المقاومة، ولكن ولدى المحاولة فشلت إسرائيل في تنفيذ رغبتها ولاسيما بعد أن وقفت على القدرات الفلسطينية من حيث امتلاك صواريخ أرض–أرض تستطيع أن تصل إلى مسافة تتعدى ٢٥كم في عمق إسرائيل، كما أن مقاتلي المقاومة أبدوا في المواجهة المباشرة مع القوات البرية الإسرائيلية بأسا وقوة وحسن تدريب وتنظيم حمل القيادة الإسرائيلية على إعادة النظر بالأمر الذي قادها إلى السعي لفترة تهدئة مع حركة حماس لمدة ستة أشهر تنتهي في ٢٠٠٨/١٢/١٩، فترة كانت تحتاجها إسرائيل لتقييم الموقف الذي استطلعته وسبرت أغواره في عملية الشتاء، وكانت تحتاجها المقاومة لإعداد نفسها لمواجهة لا بد قادمة لان إسرائيل والمنظومة العربية الدولية التي تهتم بالشأن أظهرت رفضها لاستمرار واقع استفراد حركة حماس بحكم القطاع غير منصاعة لأمر رئيس السلطة الذي يعمل لتنفيذ مشروع التسوية الموضوع من قبل أميركا وتديره اللجنة الرباعية الدولية، ونعتقد أن الطرفين كانا على يقين بأن التهدئة هي فترة انتقالية،

والأصح هي فترة ما قبل الحرب "الحاسمة"، حسم تريده إسرائيل لأكثر من سبب وعلة، ولا تستطيع تأجيله لأبعد من العام ٢٠٠٨.

وبالفعل بدأت إسرائيل ومنذ اللحظة الأولى للتهدئة بالعمل على جمع المعلومات ووضع الخطط المناسبة للموقف، ثم اتجهت إلى تدريب جنود النخبة لديها لتعالج الأمر في أقصر وقت ممكن وبأقل الخسائر أيضا، وحتى تيسر على نفسها مواجهات تنتظرها في الحرب القادمة تذرعت ببعض عمليات المقاومة وأغلقت القطاع في حصار محكم حيث سدت كل المعابر التي تربطها به، وساعدتها مصر في إغلاق معبر رفح تحت ذريعة عدم السماح لحماس بإنشاء حكم انفصالي وتجزئة أو تقسيم الأرض المحتلة، لقد توقعت إسرائيل من الحصار إن يضعف قدرات المقاومة في عمليات التسلح والتموين ما يسهل عليها، عندما تقرر الهجوم، أمر تحقيق أهدافها، وبأقل خسائر ممكنة في مواجهة عدو مستنفد ضعيف خائر القوى.

عندما انتهت فترة التهدئة كانت إسرائيل قد أكملت استعداداتها للإجهاز على المقاومة في غزة، وكانت قد نفذت قبل ذلك بشهرين مناورة أخيرة في صحراء النقب ضمن بيئة جغرافية أعدتها خصيصاً لذلك لتكون شبيهة بقطاع غزة، كما أنها كانت قد أجرت "مناورة الجبهة الداخلية"، ومناورة "شبك الأذرع" أي بكلمة موجزة كانت قد عالجت وفقاً لما صدر عن قادتها العسكريين ووزير حربها كل الثغرات التي أظهرتها "حرب لبنان الثانية" بالتسمية الإسرائيلية ٢٠٠٦، إضافة إلى ذلك كانت قد فرغت من رصد وتحديد كل الأهداف الإستراتيجية والتكتيكية العملية في غزة بحيث إنها انتهت إلى تجهيز "بنك أهداف" من نيف و٣٠٠ هدفاً فلسطينياً في القطاع.

أما المقاومة الفلسطينية في غزة وفي مقدمتها حركة حماس فقد كانت على ثقة أن إسرائيل تسعى لحرب تحتاجها لاعتبارات عسكرية ذاتية وسياسية داخلية وإقليمية عربية ودولية عامة، لهذا كان عليها أن تستعد لذلك، وبالفعل حضّرت أرض معركتها بما تيسر لها من قدرات وصنعت ما تقدر على إنتاجه من الصواريخ، واستقدمت من الخارج ما تستطيع إدخاله من السلاح والذخيرة والتجهيزات عبر أنفاق حفرتها لتتغلب على

الحصار المفروض عليها والرقابة المشددة التي اعتمدت على معبر رفح وفقاً لاتفاق عقد عام ٢٠٠٥ بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية يمنع إدخال أي سلاح إلى القطاع، كما أنها استفادت من نموذج المقاومة اللبنانية التي نظمها حزب الله جنوب لبنان، لا سيما أداء هذه المقاومة في حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦، والتي انتهت إلى منع إسرائيل من تحقيق أهدافها من العدوان، وإلى هزيمة إسرائيلية أدخلت إسرائيل في مآزق سياسية وعسكرية لا زالت تتخبط في تداعياتها.

وكان الأسبوع الأخير من العام ٢٠٠٨ وقتاً مثالياً بالنسبة لإسرائيل لتشن حربها وفقاً لما خططت، وتحقيقا للأهداف التي وضعت، نقول "مثالية" لأنها فترة تقع ما بين عيدي الميلاد ورأس السنة لدى العالم، وما فيهما من تعطيل دولي شبه عام، وتسبق الانتخابات الإسرائيلية بستة أسابيع، وتأتي قبل انتهاء الولاية القانونية لرئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس بأسبوعين، وتسبق تسلم الرئيس الأميركي الجديد باراك أوباما لمسؤولياته في الحكم بأربعة أسابيع، وهي مثالية لأن إسرائيل تستطيع أن تنفلت من أي ضغط دولي كما ظنت، ومهما كان مصدره، وتستطيع في حال النجاح أن تضع الجميع أمام أمر واقع جديد يوافقها ولا يمكن لأحد أن يقفز فوقه، لهذا انطلقت لحربها وفقاً لخطة أعدت ولأهداف وضعت، فواجهتها المقاومة بما تيسر؟ فكيف كان القتال والنتيجة؟

أولا: الحرب الإسرائيلية: الخطة، المضمون، النتائج

انطلقت صبيحة يوم ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٩، ٣٢ طائرة حربية إسرائيلية لتغير،وفي لحظة واحدة ،على أهداف في قطاع غزة، وكان ذلك إيذانا ببدء الحرب، وترافق الهجوم مع تصريح لتسيبي ليفني وزيرة الخارجية الإسرائيلية قالت فيه:"نريد أن نغير الواقع في غزة"، وأعقبها وزير الحرب الإسرائيلي إيهود باراك بالقول: "يجب أن ننهي التهديد الإرهابي القائم في غزة وبشكل نهائي، ونحقق الأمن لجنوبي إسرائيل"، أما أولمرت الذي لا زال يعيش مرارة حرب تموز/ يوليو ٢٠٠٦ ونتائجها عليه فقد قال:" نعول على تماسك الجبهة الداخلية، وننفذ ما يحقق الأهداف الإسرائيلية، لا سيما الأمن لجنوب إسرائيل، وإن المهمة ستستغرق وقتا طويلا"، كانت هذه المواقف العلنية الأولية لثلاثي

السلطة المسؤول عن إدارة الحرب، ورغم اقتضابها غير أنها كانت كافية للدلالة على ما تريده إسرائيل، ثم كان السلوك في الميدان واضحاً في تحديد الخطة الأولية للحرب فكيف كان ذلك؟

اعتمدت إسرائيل لحربها خطة مركبة **تهدف إلى صنع نصر في الميدان بقوة النار والحديد،** وتقوم على مرحلتين عسكريتين، الأولى: جوية وقد نفذت، والثانية: برية لم يستكمل تنفيذها، أما الثالثة فقد كانت مرحلة أمنية- سياسية رهن تنفيذها بنجاح العملية العسكرية بمرحلتيها، لهذا صرف النظر عنها عندما أخفقت العملية العسكرية وعجزت عن بلوغ أهدافها، وفي التنفيذ الميداني يمكن التفصيل كما يلي:

أ. المرحلة العسكرية الأولى: المرحلة الجوية

وهي "مرحلة السحق والتدمير"، وتقضي بأن يدمر الطيران الإسرائيلي وبشكل مفاجئ جميع الأهداف المحضرة ضمن ما يسمى "بنك الأهداف"، هذه الأهداف التي ذكر باراك نفسه بأنه استغل فترة التهدئة لتمحيص ودراسة الواقع الميداني في غزة بدقة وصولاً إلى تحديدها بحيث ينتج عن تدميرها تحقيق الأهداف التالية:

- قطع رأس المقاومة، والإجهاز على منظومة القيادة والسيطرة لديها.
- تقطيع أوصال المقاومة وتشتيت أشلائها.
- عزل مواقع المقاومة وخلاياها ومنع أي إمكانية للتواصل بينها.
- الإجهاز على البنية التحتية واللوجستية للمقاومة بما في ذلك مخازن الأسلحة والذخائر والصواريخ.
- تدمير مخازن الأسلحة ومنصات الصواريخ، ومصانع الذخيرة والمتفجرات.
- قتل ما أمكن من قيادات المقاومة ومن المقاومين.
- إضافة إلى ذلك، ضرب البنية الإدارية لسلطة حماس بما يؤدي إلى منعها من الاستمرار في السيطرة على القطاع فيفتح الطريق أمام تغيير الوضع فيه.

وقد عوّلت إسرائيل على نجاح المرحلة الجوية لتحقيق الأهداف المتوخاة منها لأن

نجاحها كان شرطاً لا بد منه لتنفيذ المرحلة الثانية من العملية (العملية البرية) في حدود ما رسم لها.

لقد نفذت المرحلة الجوية خلال **الأيام الثلاثة الأولى وفق ما خطط** لها، وتمكنت إسرائيل من معالجة جميع الأهداف التي أعدت في "بنك الأهداف" وأدى ذلك إلى قتل ٣٢٠ شخصاً وإصابة ١٢٥٠ آخرين بجروح، ولكن المقاومة استطاعت في اليوم الثالث أن تمطر إسرائيل بـ ٤٢ صاروخاً متفاوتة المدى، وصل بعضها إلى مسافة ٣٠كم، وهنا كان الذهول الإسرائيلي لسببين، الأول: يتعلق بقدرة المقاومة على استيعاب الضربة الجوية التي أرادتها إسرائيل أن تكون مفاجأة استراتيجية تقود المقاومة إلى الانهيار الميداني بتجريدها من وسائل القتال الأساسية، أو تقودها إلى الانهيار الإدراكي بأن تزرع في ذهن قيادتها هول المواجهة وجسامة الخسائر فترفع الراية البيضاء، وعلى أرض الواقع لم يحصل هذا ولا ذاك.

وكان التعديل الأول للخطة متمثلاً في تمديد المرحلة الجوية لأيام مماثلة على الأقل للاستمرار في معالجة الأهداف السابقة، والتعامل مع أهداف جديدة ظهرت في الميدان من خلال المراقبة لردة فعل المقاومة أو مراقبة حركة السكان والتجمعات السكانية.

أثناء الفترة الإضافية أو القسم المعدل من المرحلة الجوية بات واضحاً أن إسرائيل ستركز أكثر على المدنيين بعد أن ظهر عجزها عن تحديد أهداف المقاومة التي يكون تدميرها مؤثراً على سير المعركة لاحقاً، وهكذا **اعتمد أسلوب المجازر والتدمير** لأهداف غير عسكرية مباشرة أدخلت في دائرة النار الإسرائيلية بشكل يتقدم على الأهداف العسكرية ذاتها التي تبين أن إسرائيل لا تملك الكثير من المعلومات حولها، وقد أرادت إسرائيل في الخطة المعدلة أن تستعمل المدنيين أداة ضغط على المقاومة لتحملها على الاستسلام أو على الأقل لتتخلى عن تأييدها لها فتعزلها في المواجهة.

وبعد **خمسة أيام إضافية** من العمل الجوي المكثف استعملت فيها أكثر من ٦٠ طائرة حربية معظمها من طراز ف١٦ وقصف فيها أكثر من ٤٢٠ هدفاً في كامل القطاع، وقتل فيها أكثر من ٦٣٠ فلسطينياً نصفهم أطفال ونساء وشيوخ وجرح أكثر من ٢٣٤٠ آخرين

تصورت إسرائيل أن الطريق بات مفتوحاً إلى تنفيذ المرحلة العسكرية الثانية وفقاً للخطة المرسومة رغم التأخر في انطلاقتها لمدة تتراوح بين ٣-٥ أيام، ولكن التصور هذا لم يكن في محله الواقعي إذ إن صواريخ المقاومة استمرت في التساقط على المناطق المحيطة بقطاع غزة حيث ألزم المستعمرون الصهاينة بملازمة الملاجئ وتوقيف الدراسة في المدارس في دائرة يصل شعاعها إلى ٤٠كم بعيداً عن القطاع، أما سياسياً فقد استمرت لهجة قيادة المقاومة داخل القطاع وخارجه على نبرتها العالية إصراراً منها على التمسك بالحقوق والمطالبة بفك الحصار بعد وقف إطلاق النار وفتح المعابر كلها، سلوك أكد للإسرائيليين بأن العملية الجوية لم تحقق أهدافها، وأن الانهيار الذي تدفع المقاومة للوقوع فيه لم يحصل والنتيجة جاءت فشلا في المرحلة الأولى.

ب. المرحلة العسكرية الثانية: المرحلة البرية: مرحلة "الاحتلال والتطهير"

حشدت إسرائيل لهذا الأمر خمسة ألوية من الوحدات الخاصة، ألوية النخبة، أمثال لواء غولاني وجيفعاتي، وحضّرت لتعزيزها فرقة مشاة آلية كقوات لاحقة، إضافة إلى مجموعات الدعم والإسناد المدفعي واللوجستي والهندسي وأسراب طائرات الهليكوبتر المقاتلة وطبعاً مع استمرار الطيران الحربي النفاث بالعمل في مختلف أرجاء القطاع، لقد خصصت إسرائيل لعمليتها البرية قوى يصل مجموعها إلى ٢٦ ألفا، أما أهداف العملية هذه فقد بدا أنها تتمثل في:

- احتلال الأماكن غير المبنية من القطاع في قفزة أولى، بما يؤدي إلى تجزئته مربعات ومناطق معزولة بعضها عن بعض.
- ثم محاصرة الأماكن السكنية والتضييق عليها بشكل متدرج.
- ثم التقدم إليها عبر عمليات قضم تحدد ظروف المعركة طول الوثبة فيها، وصولاً إلى إسقاط القطاع مع تجنب القتال الضاري في الأماكن المبنية.

وكان هاجس الخسائر البشرية في صفوف الجيش الإسرائيلي جراء القتال في الأماكن المبنية وحرب الشوارع مسيطراً على فكر واضعي خطة الهجوم تلك وذهنهم، لذلك كان الحذر واضحاً أثناء التنفيذ.

ومساء السبت ٣/ ١/ ٢٠٠٩، أي بعد ثمانية أيام من القصف التدميري المتواصل، تحركت الآليات العسكرية الإسرائيلية باتجاه القطاع معلنة بدء العملية البرية، وكان التقدم أولا في شمال القطاع وعلى محاور ثلاثة من شمال القطاع وشرقه، وبدا أن الخطة قضت بعزل مدينة غزة ومخيمات جباليا وبيت حانون، وعملت على هذه الواجهة ألوية ثلاثة تقدمت بحذر شديد في أرض مكشوفة لا تصلح لقتال العصابات، ومع ذلك سجلت مواجهات أوقعت في الإسرائيليين بعض الخسائر، لكن الأقسى بالنسبة لإسرائيل هو إصابة بعض جنودها بنيران "قوى صديقة" على حد ما جاء في البيانات الإسرائيلية وفي ذلك أولى الدلالات على احد أمرين أو على الأمرين معاً:

- ضعف التنسيق بين الأسلحة، (وهذا ما كانت لجنة فينوغراد أشارت له)
- ارتباك وخوف في صفوف المقاتلين وهذا ما ينذر بمخاطر بالغة لانعكاسه على معنويات الجنود واستعدادهم لمعارك الالتحام.

لقد استهلكت القوات البرية المتقدمة في القطاع مدة ٤٨ ساعة من أجل محاصرة مدن شمال القطاع ومخيماته، واستعدت لتنفيذ القصد من العملية ذاتها أي البدء بالقضم والاحتلال للسيطرة المتدرجة.

ولكن عندما دقت ساعة الحقيقة ليل ٥ -٦ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩ وحاولت القوات الإسرائيلية التقدم باتجاه غزة وجباليا كانت المواجهة الفعلية الكبرى مع المقاومين الذين حضروا دفاعاتهم على مشارف الأماكن المبنية وفي داخلها، وتعاملوا بشجاعة وجسارة ورباطة جأش مع القوات المتقدمة ما أمكنهم من إيقاع ٤٢ إصابة في صفوفهم وأسر جندي إسرائيلي، (قتل بقصف إسرائيلي أباد الخلية المقاومة التي أسرته)، هذه النتائج حددت مسارا جديدا للعملية العسكرية برمتها، وفرضت تعديل الخطة الأساسية بشكل جذري، والعمل بخطة بديلة سنعرض لها أدناه، ولكن قبل ذلك لا بد من تسجيل ملاحظات أساسية على الخطة الأولى أهدافا ونتائج.

ج. مصير الخطة الأساسية ونتائجها

لم تحقق الخطة العسكرية الإسرائيلية أهدافها الرئيسية التي انطلقت من أجلها والتي تتلخص كما ذكرنا بتمكين قوات الاحتلال من السيطرة على القطاع لتغيير الواقع فيه، وكان إخفاقها كما بدا من الأداء وسجل في الميدان عائدا في جانب منه إلى طبيعة عمل المقاومة وتفاعلها مع شعبها (نعالجه لاحقا)، وفي جانب آخر عائدا إلى الأداء الإسرائيلي قبل وبعد العملية يذكر فيه النقاط التالية:

- **فشل استخباري في تحديد الأهداف** المؤثرة على عمل المقاومة وعلى قدراتها التقريرية، ما جعل الضربة الجوية عاجزة عن شل المقاومة وحال دون إسكات الصواريخ، ولا يغير في واقع الأمر ما تبين من وجود عملاء محليين ساعدوا القوات الإسرائيلية في الدلالة على بعض الأهداف أو أرشدوها إلى بعض الكمائن التي أعدت لهم فتجنبوا الوقوع فيها على حد ما صرح به بعض الضباط الإسرائيليين ونشره الإعلام الإسرائيلي بعد أسبوعين من توقف إطلاق النار (تصريح قائد قوات المظليين إلى القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي في ٨/ ٢/ ٢٠٠٩).
- **فشل استخباري في معرفة مدى الترابط بين الشعب والمقاومة،** حيث إن كل المجازر لم تستطع إيجاد شرخ بين القيادة والقاعدة، ولم يرتفع صوت سجله الإعلام ينحو باللائمة على المقاومة وقيادتها، بل العكس هو ما حصل.
- **إخفاق إسرائيلي في معالجة معضلة التنسيق بين الأسلحة،** وهذا أمر تكرر للمرة الثانية بعد الحرب على لبنان عام ٢٠٠٦، حيث تبين وباعتراف إسرائيلي فوضى في أكثر من موقع ميداني وفي غير عملية نارية أدت إلى قتل جنود صهاينة بنيران صديقة.
- **قصور في مستوى التدريب والشحن المعنوي للجنود** ما تسبب في التردد في خوض معارك الالتحام، مما أدى إلى خسائر لم يكن يتوقع حجمها في الساعات الأولى لتنفيذ العملية البرية الفعلية.

- **عدم تقدير واقعي للوقت اللازم لإنجاز العملية** وفقاً لما هو مطلوب، ولما هو متوفر من إمكانات وقدرات أو بصورة أدق القدرة العسكرية المعدة للتنفيذ.

وبنتيجة ذلك اقتنعت القيادة العسكرية الإسرائيلية، ورغم تبجحها بإنجازات الجيش في الميدان بأن عمليتها المسماة "الرصاص المتدفق" لن تحقق أهدافها الأساسية، وجاء تصريح قائد المنطقة الجنوبية المسؤول الميداني المباشر عن التنفيذ ليقطع الطريق على أي تفكير أو أي احتمال في متابعة العملية حيث قال:"إن احتلال القطاع بالدخول إلى المناطق السكنية والسيطرة عليها كلياً يستلزم سنة كاملة"، وكان ذلك بمثابة النعي النهائي للعملية العسكرية الإسرائيلية في خطتها الأساسية وعلى أساس الأهداف الحقيقية التي انطلقت من أجلها، وبات أكيدا أن الواقع في القطاع لن يتغير، وهنا واجهت إسرائيل السؤال الكبير: كيف الخروج من المأزق؟.

د ـ الخطة العسكرية البديلة: مضمون وأهداف

حتى تجيب على السؤال الذي فرضه الموقف الميداني، وعملاً بالقواعد العامة للتخطيط العسكري، ونظراً لعدم إمكانية اللجوء إلى قدرات عسكرية جديدة بعد أن استنفدت إسرائيل كل ما تملك من وسائل قابلة للاستعمال العسكري الميداني في الظروف القائمة، كان لا بد من التراجع في الأهداف أولا، وتغيير نمط العمل العسكري ثانياً، وهذا ما لجأت إليه القيادة السياسية وتبعتها فيه القيادة العسكرية.

أ. التراجع في الأهداف، أو تدحرج كتلة الأهداف إلى الخلف

كان واضحاً للمراقب أن القيادة الإسرائيلية في مستوييها السياسي والعسكري عملت تحت تأثير تقرير لجنة فينوغراد التي أجرت تحقيقاً حول إخفاقات "حرب لبنان الثانية" وبخاصة في مجال التخطيط وتطوير الخطط، وما ذكرته اللجنة من "تخلف القدرات الإبداعية في الجيش لوضع خطط جديدة تناسب ظروف الميدان المستجدة"، لهذا حاولت القيادة العسكرية تجنب هذا الأمر في هذه الحرب التي تعتبر بحد ذاتها نسخة معدلة ومنقحة عن حرب عام ٢٠٠٦ على لبنان، مع فارق جوهري وأساسي يتعلق بالمقاومة الفلسطينية من جهة، وهي التي لا تمتلك قدرات المقاومة المنظمة من قبل حزب الله في

لبنان لاعتبارات عدة منها ما له علاقة بالجغرافيا المتمثل باتصال لبنان بالعمق الحيوي جغرافياً خلافاً لحال غزة، ومنها ما يتعلق بالجيش الإسرائيلي الذي استخلص العبر والدروس من الحرب الأولى وتدرب على تفاديها في الثانية.

وبهذه الذهنية وضعت الخطة البديلة، وكان لا بد من تعديل الأهداف فيها بشكل جذري بعد ما تبين استحالة تحقيق الهدف الأساسي، وسقط حلم تغيير الواقع في القطاع، وتراجعت هذه الأهداف تنازليا لتتركز بشكل اكبر على المسألة الأمنية والعسكرية حيث ذكر منها تباعاً:

١. إضعاف حركة حماس عسكرياً وسياسياً، وإجبارها على تحرير الجندي الإسرائيلي الأسير لديها جلعاد شاليط.
٢. ثم تراجع إلى القول بتدمير الصواريخ ومنصاتها كلياً وحرمان المقاومة من أي قدرة على القصف.
٣. ثم تراجع إلى القول بمنع إطلاق الصواريخ، دون القول بتدميرها.
٤. ثم تراجع إلى القول بالحد من إطلاق الصواريخ، وهنا كان ملفتاً مباهاة العدو الإسرائيلي في اليوم السابع عشر من الحرب بأن المقاومة لم تطلق أكثر من ٢٢ صاروخاً بعدما كان المعدل اليومي في بدء الحرب ٤٢ حسب ادعائه!
٥. ثم كان التركيز الإسرائيلي على التدمير والقتل العشوائي وهذا هو الأخطر والأكثر بعداً عن كل قاعدة أخلاقية وقانونية وشرعية، حيث لجأت إليه إسرائيل لزرع الرعب في قلوب المدنيين الفلسطينيين لحملهم على الضغط على المقاومة لمنعها من إطلاق الصواريخ التي عجزت إسرائيل بكل جبروتها الناري أن تصل إليها وتمنع إطلاقها، وقد حاولت إسرائيل أن تسوق لهذا الأمر بشكل مباشر أو غير مباشر، على أساس أنه عمل يزرع الرهبة والخوف من الجيش الإسرائيلي في قلوب الأعداء، ما يعني **استعادة الهيبة والقدرة الردعية** التي تآكلت في "حرب لبنان الثانية"، وهو هدف قائم بحد ذاته في ذهن الإسرائيليين من قراءة هذه الأهداف، حيث بدا واضحا أن إسرائيل أسقطت بشكل ضمني وأكيد الخطة الأولى والقاضية

باحتلال القطاع كاملاً والسيطرة عليه كلياً لتعتمد خطة بديلة تتناسب وسقف أهدافها الجديدة.

ب. مضمون الخطة البديلة

بدا من سير العملية ومن تصريحات الإسرائيليين أنه واعتبارا من اليوم الحادي عشر للحرب، أي اعتبارا من يوم الثلاثاء ٦ كانون ثاني/ يناير ٢٠٠٩ اعتمدت إسرائيل خطة عسكرية جديدة ترتكز على مقولة "تعهد الحرارة والنار" في الميدان بقصد تهيئة الظرف للعمل السياسي المناسب، أو بالأحرى **نار في الميدان لإنضاج طبخة تحضر في مكان آخر**، وقد قامت هذه الخطة على الأركان التالية:

١. **إسقاط المرحلة الثالثة من العملية وهي المرحلة السياسية الأمنية،** (رغم استمرار التهديد بها وبصوت عالٍ على سبيل الحرب النفسية)، وبذلك ضاعت جهود إسرائيل وذهبت سدى كلّ التحضيرات التي كانت أعدت لفتح معسكر الاعتقال في نتساريم جنوب مدينة غزة لتودع فيه رجال المقاومة والسلطة في غزة، ولتقدر بعدها على تسليم القطاع للسلطة الفلسطينية التي كانت جهزت قوى لتسلم القطاع.
٢. **إسقاط فكرة احتلال المناطق المبنية كلياً** مع الاستمرار في عمليات الحصار والقضم البسيط وتجنب البقاء في أي قسم أو جزء منها في حال الدخول إليه.
٣. **التحول إلى العمل العسكري الإجرامي الانتقامي** المتضمن أساسا العقاب الجماعي مع ما يتضمن من جرائم الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية.
٤. **العمل على حدود القطاع مع مصر لهدم الأنفاق القائمة،** من أجل منع نقل الأسلحة إلى داخل القطاع.
٥. **اعتماد الحركة الدائمة في الميدان** ضمن مفهوم الصدمات الكهربائية المباغتة والمتلاحقة والمزدوجة التأثير: أي منع الجيش الإسرائيلي من الوقوع في اليأس والإحباط والاسترخاء من جهة، ومنع المقاومة والشعب معها من الطمأنينة من جهة أخرى، والحيلولة ما أمكن دون تنفيذ العمليات العسكرية ضد قوات

الاحتلال، ما يعني أنها اعتمدت هذا الأسلوب (أسلوب الصدمات) كأسلوب من أساليب الدفاع عن قواتها التي وجدت نفسها في عمق القطاع في مأزق لا تستطيع فيه التقدم إلى الأمام في الأماكن المبنية خشية الخسائر، ولا يمكن أن تنسحب من غير تهيئة المناخ المناسب لذلك وإلا كانت الهزيمة المدوية.

٦. **السعي الحثيث سياسيا لإيجاد** المخرج الملائم لإسرائيل، ومحاولة تحقيق ما أمكن من الأهداف المتعذر تحقيقها في الميدان، عن طريق العمل السياسي.

ت. كيف نفذت الخطة البديلة، وكيف كانت النتائج؟

عملت إسرائيل بالخطة البديلة لمدة ١١يوماً تمت خلالها حركة دبلوماسية ناشطة، اجتمع خلالها مجلس الأمن الدولي وأصدر القرار ١٨٦٠ الذي يطلب الوقف الفوري لإطلاق النار، وسبقه بساعات إعلان مصر لمبادرة سياسية فيها عرض وقف إطلاق النار والعودة إلى اتفاق ٢٠٠٥ لفتح المعابر ومنع تهريب السلاح لحماس في قطاع غزة، ثم كان الاتفاق الأمني الاستراتيجي الذي وقع بين إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية والمتضمن في جوهره بناء منظومة مراقبة دولية حول قطاع غزة براً وبحراً وجواً لمنع إدخال السلاح إليه مهما كان مصدره وبصورة خاصة من إيران، وهكذا انطلقت القوات الإسرائيلية وفي سباق مع الوقت في تنفيذ الخطة الجديدة والتي تختصر بثلاثة أنواع من العمليات: مجازر وقتل جماعي، تدمير وهدم المنشآت في داخل القطاع والأنفاق على الحدود مع مصر، وعمليات عسكرية برية محدودة في محيط القرى والمدن من غير احتلال أو مكوث في المناطق الآهلة التي تصلها القوى، وهنا يمكن تسجيل الملاحظات التالية حول إدارة إسرائيل لعدوانها على غزة في مرحلة الخطة البديلة:

١- على صعيد النطاق الميداني للعمليات

تركزت العمليات العسكرية في المناطق التالية:

- **القصف الجوي:** شمل القطاع كاملاً وتركز بصورة خاصة على مثلث جباليا بيت حانون غزة في الشمال، ومنطقة الأنفاق في الجنوب، مع تعهد ناري للأهداف التي كانت قصفت في بدايات الحرب.

- **الحركة البرية:** تركزت في محيط مدينة غزة وعلى محاور ثلاثة واحد من الشمال والثاني من الشرق والثالث من الجنوب وكان الأكثر فاعلية فيها محور الجنوب، حيث تمكنت القوات الإسرائيلية من تحقيق بعض التقدم في الأحياء الآهلة.
- **تدمير الأنفاق:** جهدت إسرائيل ولمدة أسبوع تقريباً في العمل في جنوب القطاع في محيط رفح (المطار والمعبر البري) لإقامة شريط أمني عازل بعمق ٣كم، حيث توغلت من الشرق الجنوبي باتجاه الساحل ودمرت وفقاً لما أعلنت قيادتها ٩٠٪ من الأنفاق التي تربط القطاع بسيناء.

تقدمت قوات برية في الوسط في محيط خان يونس وكان القصد كما يبدو تفعيل تقطيع أوصال القطاع الذي بدأ في اليوم الثامن بعزل غزة في الشمال عن باقي القطاع في الجنوب.

٢- على صعيد المناورة

لجأت القوات الإسرائيلية خلال هذه المرحلة إلى **سياسة المراوغة** والمراوحة و المداورة في الميدان بعد اليأس من تحقيق نتائج عسكرية أساسية وكان عملها هنا على وجهين:

- الاستمرار بالقصف التدميري بقصد إحداث ما أمكن من المجازر وقتل أكبر عدد ممكن من السكان المدنيين، ولم يكن همها هنا تحقيق أهداف عسكرية بحتة بالمعنى الحصري للكلمة، بل كان القتل في معظم الحالات يجري بقصد الضغط على قيادة المقاومة،وهنا لم تُحيِّد إسرائيل أي منطقة أو مكان، وقصفت مدارس الأونروا التابعة للأمم المتحدة ومخازن هيئة الإغاثة، لأنها قصدت فرض عقوبات جماعية على القطاع تكون امتداداً للحصار الذي كانت بدأته قبل ٦ أسابيع من إطلاق عدوانها.
- القيام بعملية الكر الصاعق على الأحياء السكنية المتباعدة المنازل في محيط غزة في الشمال ضمن عملية "**الصدمات الكهربائية المزدوجة التأثير**"، وكانت تتوخى منها أمراً من اثنين على الأقل، الأول: وهو في السقف الأعلى ويتمثل بجس نبض متلاحق

للمقاومة علها تقنص نصراً ميدانياً معتبراً تستثمره في الحل السياسي الذي بات بعد اليوم الحادي عشر من الحرب المخرج الوحيد المتاح أمامها، والثاني: ذو طبيعة دفاعية تتعلق بحماية القوة العاملة في الميدان، فقد خشيت إسرائيل أن تتحول قواتها في أماكن توقفها في المناطق المكشوفة إلى أهداف ثابتة يسهل على المقاومة ضربها، فلجأت إلى الحركة الدائمة التي تمنع- على حد تصورها- المقاومة من المبادرة إلى الهجوم.

٣- على صعيد النتائج المحققة

رغم الوحشية التي نفذت فيها الخطة البديلة، وارتفاع عدد الشهداء إلى ١٣٣٥ شهيدا من الفلسطينيين، وجرح ٥٢٢٥ منهم وتدمير الآلاف من الوحدات السكنية، وبقي الوضع في غزة وبعد ٢٢ يوماً من النار و"الرصاص الإسرائيلي المتدفق" يرسم كما يلي:

أ- **على صعيد السلطة الرسمية في القطاع،** استمرت الحكومة قائمة في القطاع ولم تتأثر سلطة حماس كما أن استشهاد الوزير سعيد صيام لم يزد زملاءه إلا تمسكاً بواجباتهم وتماسكاً مع شعبهم.

ب- **على صعيد المقاومة استمرت قيادتها** (في داخل القطاع وخارجه) متمسكة بمطالبها وبمبادئها التي كانت عليها قبل العدوان، واستمرت الصواريخ تتساقط على مستعمرات العدو ومغتصباته بمعدل لا يقل عن ٢٥ صاروخاً يومياً، كما أن عمليات المقاومة في الميدان (خاصة عمليات التصدي والإغارة والكمائن) ظلت فاعلة تؤذي العدو رغم انه لم يدخل إلى عمق المناطق المبنية.

ت- **على صعيد حركة حماس ذاتها:** استمرت الحركة في موقعها في الساحة الفلسطينية، وسجلت تقدما كبيرا في شعبيتها دخل القطاع وخارجه بما في ذلك داخل الضفة الغربية، والأهم من كل ذلك هو المستوى الذي وصلته إقليميا ودولياً حيث إنها باتت رقماً أساسيا في المعادلة الفلسطينية والإقليمية لا يمكن لأحد أن يتجاهله أو يتجاوزه، وإلا كان كمن ينكر الشمس في رابعة النهار الصيفي.

ث- على صعيد الأسير جلعاد شاليط: استمر في الأسر ولكن ثمن تحريره ارتفع بعد العملية، وباتت إسرائيل ملزمة بدفع الثمن الذي تحدده حماس ضمن صفقة تبادل الأسرى التي باتت الوسيلة الوحيدة لإطلاقه بعد أن استنفدت الوسيلة العسكرية.

ج- على صعيد الهيبة والقوة الرادعة: قد تحاول إسرائيل أن تدعي بأنها استعادت هيبتها أو قدرتها الردعية ولكن هذا يرد عليه بالقول بأن تحقق الهيبة أو قوة الردع ليس مسألة نظرية أو ادعاء فقط بل يستدل عليه من آثاره ومفاعيله، وكانت إسرائيل تستند لهيبتها وقوتها الرادعة في منع المدافعين عن المواجهة، ولذلك كانت بهيبتها تنتصر من غير قتال، نصراً يسجله لها من كان يفر من أمام قواتها المتقدمة ويسلمها الأرض بغير مواجهة، أما في غزة فإنها لم تجد ما تتمنى، فقد وجدت مقاومين لا يعبأون بنارها، ووجدت قواعد صاروخية تمتطرها بصواريخ مأمورة من قبل من لا يهاب ولا يخشى ردة فعلها.

أما النتائج الفعلية الحقيقية التي تستطيع إسرائيل أن "تفاخر" بها فهي من غير شك محصورة في ما يلي:

- المجازر والقتل الجماعي
- التدمير والحرق والإتلاف للممتلكات
- استعمال الأسلحة المحرمة دولياً من فسفور أبيض إلى نابلم إلى يورانيوم مستنفد إلى غازات سامة.
- وأخيراً نجاحها في تدمير النسبة العالية من الأنفاق وتضييق الخناق على غزة بحصار تتوخى منه استمرار العقاب الجماعي لأهل القطاع الذين فوتوا عليها فرصة النصر وتغيير الواقع عندهم.

هذا ما انتهت إليه العملية العسكرية الإسرائيلية في غزة والمسماة "الرصاص المتدفق".

ثانيا: إدارة المعركة الدفاعية من قبل المقاومة والنتائج المحققة

كان لما قامت به المقاومة من تحضير وأداء وإدارة للمعركة الدفاعية التي خاضتها من المفاعيل والآثار التي منعت إسرائيل من تحقيق أهدافها في العملية، حيث يقف الباحث على خصوصية اعتمدتها المقاومة في استراتيجية المواجهة تمكنت خلالها من إفشال العدو في مراحل هجومه، وفرضت عليه وقف إطلاق النار قبل أن يصل إلى شيء مما توخاه من عدوانه، اللهم إلا ذاك القتل المتعمد والمجازر المرتكبة بحق المدنيين، والتدمير المنهجي للبنى التحتية والمنشآت في القطاع.

استراتيجية المقاومة في الدفاع عن غزة

عندما بدأت إسرائيل في حربها، انتظر من يريد التخلص من حركة حماس والمقاومة في غزة الأسبوعين الاثنين أو الثلاثة لتنفس الصعداء وإعلان انتهاء العملية العسكرية الإسرائيلية هناك على واقع جديد تكون فيه المقاومة قد أضحت حديثاً من التاريخ، ولكن المقاومة خيبت الآمال المعلقة على إسرائيل وكان ذلك عائد لاعتبارات عدة، منها ما له علاقة بالمقاومة ذاتها تنظيماً وإدارة وأداء ومنها ما هو عائد إلى الشعب ذاته وعلاقته بمقاومته، لقد **اعتمدت المقاومة استراتيجية تقوم في جوهرها على نظام قتال يعتمد نار اللسع والإزعاج والتخويف، ومواجهة القتل والإرباك ومنع الاستقرار، مع الاستناد بشكل أساسي على المناطق المبنية، وكان المرتكز الأساس في هذه الاستراتيجية الصمود والثبات ورفض النزوح والهجرة**، وبذلك تمكنت المقاومة من إفشال مراحل العملية العسكرية تباعا، وقبل أن نعرض لكيفية إفشال المقاومة للهجوم عليها يكون من المفيد التعرض لما يطلب من المقاومة في حالة كالتي وضعت فيها وكيف خططت للمواجهة.

أ- أهداف استراتيجية المقاومة في المواجهة

كان جوهر العمل المقاوم في مواجهة إسرائيل حتى عام ٢٠٠٦ يتمثل بعمليات عسكرية يبتغى منها الضغط على المحتل للخروج من مناطق احتلاله، وهو عمل نجح في لبنان حيث طردت إسرائيل منه في العام ٢٠٠٠، لكن في عام ٢٠٠٦ كان للعمل المقاوم

وعلى أرض لبنان أيضا هدف جديد يتمثل في منع العدو الإسرائيلي من تحقيق أهداف عمليته الهجومية التي تمثلت يومها في اقتلاع المقاومة من شعبها وتجريدها من سلاحها وإلقاء رجالها في القبور أو المعتقلات، ولأن تعريف النصر للمهاجم يقوم على تحقق أهداف هجومه، فإن المدافع ينتصر إذا منع المهاجم من الوصول إلى الأهداف التي انطلق من أجلها، وهنا كان على حركات المقاومة في غزة كما كان الأمر بالنسبة لها في لبنان أن تدرك أولاً ما هي أهداف الهجوم وتعمل ثانياً على منع تحققها، وبالعودة إلى ما سبق ذكره أعلاه فإن المقاومة تنتصر إذا وصلت في نهاية الحرب إلى وضع يتمثل بالعناصر المبينة أدناه أو بعبارة أخرى تكون المقاومة منتصرة إذا توقف إطلاق النار عليها وتكون قد حالت دون تحقيق العدو لأهدافه من الهجوم، وتكون هي في وضع يستجمع العناصر التالية:

١- **استمرار المقاومة بذاتها واستمرار عمليات المقاومة، لإجهاض القرار بتصفيتها،** وكان للمقاومة أن تحقق ذلك عبر بقاء خلايا تعمل في غزة ضد العدو المحتل دون أن تتأثر في مساحة الأرض المحتلة ضيقاً أو اتساعاً.

٢- **الاحتفاظ بالقدرة وبأي حجم كان على إطلاق صواريخ** إلى عمق فلسطين المحتلة، لأن ذلك يعني عدم قدرة العدو على منعها، ونذكر أن وظيفة القوة النارية للمقاومة الشعبية المسلحة في هذه المرحلة ليست تدمير إسرائيل أو تدمير قواتها العسكرية، بل هي قائمة لإنتاج الخوف لدى المستعمرين الصهاينة، ما يسقط الأمن الإسرائيلي ويسقط قاعدة "نقل الحرب إلى أرض الخصم" التي تتمسك بها إسرائيل في عقيدتها العسكرية، فإذا أنتج مثل هذا الرعب والخوف كان ممكنا توقع كبح العدوانية الإسرائيلية في العمل والقتل والتحسب للرد إذا اعتدت، كما يشكل ذلك، تراكميا، حالة مهمة لدفع العدو للتفكير في الانسحاب من الأراضي المحتلة، كما حصل سابقا في لبنان وغزة.

٣- **المحافظة على علاقة متينة مع الشعب** وعدم ترك فرصة للعدو بالنجاح في إحداث شرخ بين المقاومة وجمهورها، أو حمل الشعب على التنكر لمقاومته واليأس من فاعليتها وجدواها، فيتخلى عنها وتسقط المقاومة بعد ذلك.

٤- **الاحتفاظ بقدرة الاتصال بالعالم الخارجي** لتثبيت مشروعية المواجهة وإجهاض محاولات النبذ والعزل، لأننا في عصر لا يمكن التنكر فيه للعلاقات الخارجية، فقد يبقى الإنسان بذاته ولا يعترف به أحد فلا يستطيع أن يصرف قوته ووجوده أو يحشد لصيانة حقه.

ويضاف في واقع حركة حماس عناصر تتعلق بالسلطة والجندي الأسير، فيكون عليها لتستجمع كل عناصر الانتصار أن تستمر في موقعها في إدارة القطاع دون أن تمكن العدو من إحداث التغيير بالقوة الإسرائيلية، وكذلك الاحتفاظ بالأسير الإسرائيلي دون أن تمكن العدو من تحريره إلا وفق شروطها في عملية تبادل الأسرى المشرِّفة.

أما عدد القتلى، وحجم الدمار، ومقدار الخسائر في البنى التحتية والاقتصاد وما إليه من كوارث مادية أو بشرية (في الجانبين) فإنها لا تتخذ المعيار الذي يركن إليه في توصيف النتائج، بل أنها تعتبر في الحروب دليلاً على الثمن الذي دفع من أجل تلك النتائج، لأن نتيجة الحرب هنا نصراً أو هزيمة تنحصر في الإجابة على السؤال: هل حقق المهاجم أهدافه من الهجوم؟ فإن كانت الإجابة بنعم فإن ذلك يعني نصره وإن كانت الإجابة بلا فإن ذلك يعني هزيمته، ويعني أن التضحيات والخسائر هي ثمن لتحقيق ذلك بصرف النظر عن حجمها، فمراكمة الانتصارات هي طريق تحرير الشعب وهزيمة المحتل أيديولوجيا وعسكريا وأمنيا على المدى البعيد.

ب- أثر استراتيجية المقاومة على الخطة الإسرائيلية

- تعطيل مفاعيل القوة النارية الحاسمة.
- منع نجاحه في خوض الحرب السريعة الخاطفة، وهنا نذكر بأن إسرائيل حسمت الحرب ضد الدول العربية وعلى جبهات ثلاث في العام ١٩٦٧ في ستة أيام نظرياً وفي ٧٢ ساعة عملياً وفعلياً، أما في قطاع غزة فإنها لم تحقق أياً من إنجازاتها العسكرية رغم دخولها في الأسبوع الثالث من الحرب.
- تفرض على إسرائيل تحمل الخسائر الفادحة في قتال الشوارع، إذا أرادت احتلال

المدن، علماً بأن عدم احتلال المدن والقرى يعني فشل الحرب لأن المقاومة في غزة متمركزة أساسا في الأماكن المبنية.

- تتمكن من إقحام الجبهة الداخلية الإسرائيلية وإن بقدر محدود في ظروف الحرب والخوف من آثارها.

كيف أفشلت المقاومة العملية الجوية؟

لا يمكن لأحد أن ينكر بأن إسرائيل فاجأت المقاومة في الساعات الأولى للعملية وكادت أن تدخل المقاومة في حالة اختلال توازن تتوخى منه إسرائيل تحقيق الانهيار في صفوف المقاومة بأحد وجهيه الميداني أو الإدراكي، حيث أن قصف المراكز الرسمية وبخاصة الشرطة المجتمعة في احتفال رسمي، وقصف ٤٣ هدفا في أقل من ساعتين أدت في نتائجها الأولية إلى قتل ١٥٥ وجرح ٤٥٣ كان أمرا فظيعا، ولو كانت العملية موجهة إلى مراكز عسكرية لجيش تقليدي في خطوط المدافعة لكانت أخرجت القوى من المعركة وفتحت الطريق واسعاً أمام القوى المهاجمة، ويجب أن يعترف وبموضوعية أن المقاومة كان يمكنها تفادي مثل هذه المفاجأة وهول هذه الخسارة لو كانت أكثر حذرا وحرصا وتبصرا ولم تقع في فخ الخديعة الذي نصب لها (بمعلومات مضللة قيل إنها نقلت لها من أطراف غير صديقة)، فليس لها في الوضع الذي كانت تعيشه المنطقة وفي ظل التهديدات الإسرائيلية أن تقدم على تجميع هذا العدد من قوى الشرطة في مناسبة يمكن إلغاؤها، ومع ذلك نقول إنه ورغم حجم المفاجأة استطاعت المقاومة أن تلتقط أنفاسها بعد ساعات، ثم تماسكت ثم استعادت قدرتها على الرد وما أن جاء اليوم الثاني حتى كانت في طور تجاوز المفاجأة الاستراتيجية، وتحويلها إلى مفاجأة عملانية قابلة للاستيعاب والمعالجة والتعامل مع نتائجها كما هي مع تقليل أثر سلبياتها، أما أسباب قدرة المقاومة على ذلك فهي عائدة إلى ما يلي:

- **عدم إقامة المراكز العسكرية الثابتة للمقاومة** والظاهرة للعلن بل توزع القوى المقاومة وانتشارها في الصفوف الشعبية، وهذا أمر يعود إلى طبيعة العمل الشعبي المقاوم، فالمقاومون ليسوا وحدات نظامية تتخذ مراكز عسكرية واضحة وثابتة يؤدي قصفها

إلى إخراج الوحدة من الميدان، بل هم أفراد مدنيون يمارسون بمعظمهم أعمالهم المدنية العادية، ويلتحقون بالعمل العسكري عند الحاجة، لذلك لا يكون من قيمة تذكر للمباغتة في قصف الأهداف لأنها ستطال غير المقاومين، وهذا ما حصل بالفعل، إذ إن الذين قتلوا كانوا من المدنيين العاديين والعاملين في السلطة الأمنية أو الرسمية وليسوا هم المقاومين فعليا، بل هم شرطة سير في حفل تخرج!

- **انتظام المقاومة في خلايا صغيرة** يتراوح أفرادها بين ٣-٩ عناصر في الحد الأقصى، وارتكاز المقاومة في الميدان على قاعدة لا مركزية العمل الميداني التنفيذي مع مركزية القرار الإجمالي العام، وهذا ما يعطل مفاعيل قطع الاتصال أو تدمير مراكز القيادات الرئيسة.
- **التزام المقاومة بمبدأ إقليمية التنظيم المقاوم** وقاعدة الاكتفاء الذاتي للمنطقة، بحيث يكون لكل منطقة مقاتلوها ومخازنها ولوجستيتها، ما يعطل من مفاعيل الحصار والمراقبة الجوية الدائمة وقطع الطرق بالتدمير أو بالنار.
- **تأهيل المقاتل المتعدد الكفاءات،** ما يعطل مفاعيل قتل عنصر أو أكثر من المجموعة الكبرى، فمن يبقى حياً يتابع القتال و باستعمال كل الأسلحة المتوافرة.
- **الإعداد المسبق لحماية الذخائر والاحتياجات اللوجستية،** والاعتماد على التخزين على الحفر والخنادق التي لا تتطلب عملاً هندسياً فائقاً
- **الاعتماد على شبكات الاتصال السلكية** في أكثر الحالات ما عطل فرصة المس بمنظومة القيادة والسيطرة لدى المقاومة، ناهيك عن شبكات وموجات لاسلكية خاصة متغيرة
- **الارتكاز إلى الأماكن المبنية في خطة المدافعة بسبب الأرض المكشوفة في القطاع، ومع ذلك لجأت المقاومة إلى إعداد الأرض جيدا وتحضير المخابئ والأنفاق،** وانتشار القيادات والمقاومين فيها، ما جعل هؤلاء بمنأى عن الخطر المباشر الذي شكلته العمليات الجوية الكثيفة.

- **التحضيرات السياسية والإعلامية والقيادية،** خاصة في ظل وجود القيادة المركزية لحركة حماس في خارج فلسطين، وهي التي تقدم الدعم السياسي وغيره خارج منطقة النيران.

إن هذا التحضير و التنظيم حال دون تحقيق القصف الجوي لأهدافه، لأن هذا القصف لم يعدم المقاومة وسائلها القتالية واللوجستية، ولم يحرمها من الحد المطلوب للترابط والاتصال بين رأس المقاومة وجسمها وكذلك بين عناصر المقاومة وأعضائها، فحرم المهاجم من تحقيق الانهيار الميداني لدى المقاومة وأهم من كل ما ذكر، فإن المجازر التي ارتكبت والتدمير المنهجي الذي حصل لم يحدث الانهيار الإدراكي الذي يسعى إليه المهاجم عادة ليحمل المدافع على الاعتقاد بأن معركته خاسرة حتى ولو امتلك الوسائل اللازمة للقتال، لأن المهاجم متفوق عليه تفوقاً لا يمنحه فرصة الإفلات، فيقبل بالاستسلام من دون خوض المعركة، **هنا كان تدخل الحالة الإيمانية التي تميز المقاتل المسلم الملتزم، والثابت في إيمانه، والذي يدخل الميدان واضعاً نصب عينيه قاعدة النصر أو الشهادة** ما يعني أنه يرى نفسه مدفوعاً للقتال حتى يستشهد إن كان النصر صعباً ولا يستعجل الاستسلام ولا يقبل به وهنا تبلورت قاعدة: **"الإيمان يعصم من الانهيار الإدراكي"**.

وهكذا نرى أن التنظيم والتخطيط المنهجي والعملياتي المسبق منع الانهيار الميداني، والإيمان منع الانهيار الإدراكي، وأن القرار السياسي المستقل أضعف الضغوط السياسية والإعلامية أن تؤتي أكلها، حتى من أقرب الأطراف العربية من محور الاعتدال، والنتيجة كانت إفشال أهداف المرحلة الجوية.

دور المقاومة في إفشال العملية البرية

كانت الساعات الأولى لانطلاق العملية البرية الإسرائيلية حاسمة في تقرير وجهة نتائج العملية برمتها، لهذا رأينا إسرائيل تتصرف بحذر شديد في تنفيذها، حيث أنها استغرقت وقتاً لا يستهان به في تنفيذ عملية التقدم لتحقيق التماس والتمركز على خطوط الحصار والتطويق والإطباق.

لقد تقدمت القوات الغازية من مواقعها خارج القطاع لتتخذ مواقع لها في محيط التجمعات السكنية مستعملة الأرض المفتوحة المكشوفة التي لا يتوقع أن تلقى فيها مقاومة أو قتال رجال عصابات، ومع ذلك فقد فوجئت بعدد الكمائن التي واجهتها وببعض عمليات القصف التي أطلقت باتجاه قواتها، وإن كانت محدودة في العدد والتأثير.

لكن يوم الحسم في العملية كان ليل ٥-٦ كانون ثاني/ يناير ٢٠٠٩، حيث بدأت المرحلة البرية بشكل فعلي وجدي بقصد الدخول إلى المناطق المبنية، وكان واضحاً من الأداء الإسرائيلي التركيز بصورة خاصة على غزة عاصمة القطاع ومركز حكومة المقاومة وقيادتها الميدانية الداخلية، وكان في معتقد إسرائيل أن احتلال مدينة غزة وتطهيرها ممن ذكرنا سيوفر عليها القتال بعد ذلك، فيسقط القطاع كله مترافقاً مع سقوط غزة المدينة، لهذا رأينا الجهد الرئيسي البري يتوجه إلى غزة بعد أن حوصرت وقطعت عن جنوب القطاع، لكن المقاومة تصرفت بشجاعة مبدية إرادة في الصمود واستعداداً للتضحية عالي المستوى، من أجل ذلك تصدت للقوى الغازية على خطوط التقدم الثلاثة كلها، واستطاعت أن توقع الخسائر في صفوف إسرائيل بحجم أكبر مما كان متوقعا إسرائيليا، وقد لجأت في المواجهة إلى ما يلي:

١- الكمائن التي يبدو أنها كانت محضرة جيداً على مشارف الأماكن المبنية ففاجأت العدو بقدراتها.
٢- الغارات: الإغارة بالمجموعة الصغرى، أو الإغارة بالمجموعة الكبرى.
٣- النسفيات والفخاخ والألغام.
٤- المراوغة الميدانية وعمليات الاستدارج إلى مناطق التقتيل، ثم المهاجمة.
٥- العمل ضد الدروع بنظام مقبول أو متواضع من الأسلحة والقذائف الصاروخية.
٦- القنص من مسافات بعيدة.
٧- اللجوء ضمن قدرات متواضعة إلى قصف تجمعات العدو ومحاور تقدمه وحركته بقذائف الهاون (مورتر) وبالقذائف الصاروخية، هذه القذائف التي اعتمدت أصلاً لقصف أهداف خارج القطاع.

هذا الأداء أفهم العدو أنه في مواجهة رجال قرروا المنازلة من غير تراجع، واستنتج أن كلفة احتلال مدينة غزة ستكون مرتفعة، ووقف على حقيقة أخرى تتمثل بالقول: ماذا ينفعه عمله إن احتل قرى وبلدات القطاع وبقيت مدينة غزة صامدة، **لذلك أعتقد أن قرار وقف العملية الأساسية كان قد اتخذ يوم ٦ كانون ثاني/ يناير ٢٠٠٩ اليوم الذي اعتبره العدو النهاية الفعلية لعملية الرصاص المتدفق العدوانية وما تلاه كان أمرا آخر.**

أداء المقاومة في مواجهة إسرائيل في مرحلة تنفيذ الخطة البديلة

- **الأداء المقاوم**

كان على المقاومة هنا أن تحافظ على مسائل أساسية حتى لا تفسح المجال أمام إسرائيل في حربها الإعلامية أو الدعائية أو النفسية وتقلب الأمور فتقدم هزيمتها انتصارا، وهي:

١- الاستمرار على المواقف السياسية الأساسية التي كانت عليها لحظة بدء الحرب، وقد قامت بذلك وبحذاقة بينة وساهم التكامل في الأدوار بين قيادة الداخل في غزة وقيادة الخارج في دمشق بتحقيق هذا الهدف، وأجهضت المقاومة بتناغم قياداتها الخطة الإسرائيلية لترويج فكرة الانقسام بين داخل وخارج أو التباين في الموقف والرأي بين فصائل المقاومة ذاتها.

٢- الاستمرار في قصف المستعمرات الإسرائيلية بالصواريخ، وقد نجحت المقاومة في ذلك وحتى اللحظة الأخيرة، لاسيما أنها لم تخفض سقف النمط اليومي كثيراً في هذا الأمر، حيث كان النمط في بدء الحرب بمعدل ٣٧ صاروخاً يومياً وتوقفت الحرب على نمط ٢٦ صاروخا يوميا وهو أمر مهم للغاية أبلغ إسرائيل بوضوح أنها فشلت في تحقيق أهدافها.

٣- الاستمرار في مشاغلة القوات المحتلة بعمليات متعددة الأوجه والأساليب، وهذا ما قامت به المقاومة في أكثر من محور أو ساحة مواجهة، وجعلت العدو يحاذر البقاء في أي حي مدني دخل إليه في قرية أو مدينة وبخاصة في غزة.

٤- الاستمرار في احتجاز جلعاد شاليط، مع اتخاذ التدابير اللازمة للحؤول دون الوصول إليه أو قتله كما فعلت إسرائيل مع الجندي الذي أسر في محيط غزة حيث قتلته مع المجموعة المقاومة الآسرة.

٥- استمرار حكومة حماس قائمة في وظائفها، و تخفي وزرائها عن النار الإسرائيلية في مخابئ أفشلت استهدافهم (ولم تنل إسرائيل إلا من وزير واحد هو سعيد صيام).

٦- استمرار الالتصاق الشعبي بالمقاومة واحتضانها، وقد كانت مناسبة تشييع الشهداء لا سيما الشهيد سعيد صيام مناسبة للعالم ليعرف عبر استفتاء شعبي غير مصطنع أو ملفق مدى التفاف الشعب في غزة حول مقاومته، برغم أن خطر القصف الإسرائيلي كان قائما.

٧- تفعيل الاتصال بالعالم الخارجي عربيا أو إسلاميا أو دوليا، ويسجل للمقاومة هنا حضورها العربي، ولاسيما في مؤتمر الدوحة، واستفادتها من تحرك الشعوب العربية والإسلامية حتى والأجنبية الأخرى لصالحها، كما وبدء انفتاح دول أخرى عليها بشكل بيِّن ولافت.

- **مآخذ على المقاومة**

قبل أن نختم هذا الموضوع لا بد من التوقف عند ملاحظات أساسية حول أداء المقاومة وما يمكن أن يؤخذ عليها من تراخٍ أو تلكؤ أو قصور، ونسجل هنا الملاحظات التالية:

١- في البدء نقول إنه لا تصح المقارنة بين ما جرى في جنوب لبنان في العام ٢٠٠٦، وما جرى في غزة عام ٢٠٠٩، ولا يمكن قبول القول بأن معارك الالتحام وإيقاع الخسائر بالجيش الإسرائيلي لم تكن بالقدر المنتظر، لأننا نرى بأن وظيفة المقاومة ليست تدمير الجيش الإسرائيلي المهاجم، بل إن نجاحها يكمن في منعه من تحقيق أهدافه، فإذا عرفت الأهداف، وتم اختيار السبيل المناسب لمنع حصولها فإننا لا

نتوقف عند حجم خسائر العدو بل ننظر إلى سلوكه، فإذا امتنع عن متابعة العملية قبل تحقيق أهدافه فإنه يكون قد هزم، ولا يحسب النصر الذي يعول عليه في المواجهة بمقدار القتلى والجرحى والخسائر التي تحدثها المقاومة بصواريخها في صفوف العدو، فليس لعاقل أن يقول أن المقاومة الفلسطينية المحاصرة في غزة بإمكانها أن تدمر إسرائيل أو تحدث المجازر، فوظيفة صواريخها إحداث الخوف المعطل للحياة عند العدو، وقد حققت الصواريخ أهدافها ولا نبحث بعد ذلك عن حجم الخسائر في صفوف العدو.

٢- وفي الحروب عندما يكون هجوم ودفاع لا بد من القول بمنتصر، أما عندما يكون حرب استنزاف فإننا نبحث عن حجم الخسائر لنحسب النقاط، وفي حال غزة فإن هجوما كان قائماً وانتهى من غير تحقيق الأهداف لذلك نقول أن المدافع انتصر وبصرف النظر عن كيفية صنع هذا النصر، وقد يكفي أن نقول أنه انتصر بثباته وصموده وهذا أمر كبير.

٣- ومن زاوية أخرى يجب أن نسجل قصوراً أمنياً ورؤيوياً لدى المقاومة تجلى في أمرين كان بإمكانها معالجتهما لتوفر على نفسها الخسائر الكبرى، الأول يتعلق بترقب الحرب واندلاعها، والثاني يتعلق بوجود العملاء الذين تباهي إسرائيل بأنهم أنقذوا جنودها وقتلتهم دون اكتراث.

دور الإعلام في سير المعركة

لا يخفى ما للإعلام أصلاً من تأثير في الحروب من خلال الشحن المعنوي والحرب النفسية والحرب المضادة، وقد لجأ الطرفان إلى الإعلام بشكل واضح، ولكن في هذه المعركة أو هذه الحرب ونظراً لاختلاف المواقع بين إسرائيل والفلسطينيين من حيث الحق والشرعية والأسلحة المستعملة، ورغم كل محاولات إسرائيل إخفاء الحقيقة أو تلفيق الوقائع وتزويرها، ورغم فرضها لرقابة مشددة على الإعلام غير مسبوقة في تاريخ حروبها، رغم كل ذلك تعتبر المقاومة ومن يحضنها ويتعاطف معها قد كسبت معركة الإعلام خلال الحرب في اتجاهات ثلاثة:

- باتجاه المقاومين أنفسهم، حيث استمروا في الميدان وعلى معنويات عالية، حيث لم تحقق الحرب النفسية الإسرائيلية أثرا فيهم يحبطهم أو يمنعهم من مواصلة القتال.
- باتجاه الشعب في الداخل، حيث بقي ملتفاً حول مقاومته ثابتاً في أرضه يتلقى كتل النار في صدره، فيعبر عن الرفض غضباً ولا يؤدي به ذلك إلى التوجه للمقاومة تنكرا أو إنكاراً.
- باتجاه الخارج، حيث استطاع الإعلام (إعلام المقاومة وغيرها) أن يظهر وحشية إسرائيل، وأن يؤلب الرأي العام العربي والإسلامي والدولي عليها، وكانت هذه الحرب بمثابة الصدمة التي تحدث الوعي في الضمير العام بعد نسيان وسبات، لقد أعادت الحرب هذه قضية فلسطين إلى واجهة اهتمامات الرأي العام العالمي.

الخاتمة

أيقنت إسرائيل بعد مضي ثلاثة أسابيع من بدء العدوان، أن خطتها الأساسية أخفقت في تحقيق أهدافها، وأن الخطة البديلة لم توفر لها ما كانت تسعى إليه من تأليب الفلسطينيين على مقاومتهم، وأدركت أن الوقت قد ضاق عليها وأنها لن تحقق شيئاً في حال استمرار الهجوم بكل أشكاله وخططه، بعد كل ذلك قررت وقف إطلاق النار من جانب واحد، لا يكون استجابة للقرار ١٨٦٠، ولا يكون نتيجة اتفاق مع حركة المقاومة، ونحن نعلم أن وقف إطلاق النار من جانب واحد يفسر في العلم العسكري بواحد مما يلي من التفسيرات:

- إما أن يكون المهاجِم حقق أهدافه ودمر عدوه، فقرر وقف إطلاق النار لأن العدو لم يعد قادراً أصلاً على إطلاقها، ويكون قد وضعه في موقع يقتاده فيه إلى التسليم وهذا هو النصر للمهاجم.
- أو يكون قد أدرك أن أهداف هجومه باتت مستحيلة التحقيق فيقرر وقف عدوانه والتراجع عن الهجوم وهذه هي هزيمة المهاجم.
- أن يكون وقف إطلاق النار فرضاً على الطرفين من جهة ثالثة أو استجابة لوساطة خارج دائرة الصراع.

ولا شك أن إسرائيل أوقفت إطلاق النار لأنها عجزت ويئست من تحقيق أهدافها، ولم تتشكل حالة مما ذكرنا أعلاه سوى أن في الأمر خسارة عسكرية لإسرائيل في عدوان حضرت له لأكثر من ستة أشهر، وهكذا كان وقف إطلاق النار في ١٨ كانون ثاني/ يناير ٢٠٠٩ بقرار إسرائيلي منفرد، اتبع بقرار فلسطيني منفرد أيضا، واتبع بانسحاب القوات الإسرائيلية من المناطق التي احتلتها في القطاع لتسدل الستار على انتصار للمقاومة حققته بصمودها البطولي الذي أفشل إسرائيل ومنعها من تحقيق أهداف عدوانها.

ويقال بأن ضغوطا كبيرة مورست على حركة حماس لإعلان وقف إطلاق النار من جانبها أو بالتزامن مع إسرائيل، وقد تسبب هذا الأمر بتأخير إعلان أيهود أولمرت لوقف إطلاق النار لمرتين.

أوقفت النار واستمرت المقاومة، واستمرت صواريخها قادرة على الوصول إلى أكثر من ٤٥ كلم في عمق العدو، واستمر الشعب ملتفاً حول مقاومته، واستمرت حكومة حماس في مواقعها الرسمية، وبقي جلعاد شاليط في الأسر، وعادت إسرائيل تحصد ثمار الخيبة من حرب ثانية تفشل فيها بعد حربها على لبنان وهزيمتها فيها على يد المقاومة التي نظمها حزب الله فيه، وذلك خلال ٣٠ شهرا فقط، من ٢٠٠٦ إلى ٢٠٠٩.

ولم ينفع إسرائيل لتغطية فشلها إخفاء أهدافها من العدوان باستعمال التعابير العامة، ولا تعديل هذه الأهداف تراجعاً، ولا تغيير الخطط بشكل متلاحق، ولا اللجوء إلى الأسلحة المحرمة دولياً، ولا انتهاك قواعد القانون الدولي وارتكاب جرائم الحرب، بل ارتد عليها ذلك نقمة دولية وعزلة خانقة وخطراً من ملاحقة مسؤوليها بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

وفي المقابل نجحت المقاومة- بصمودها وشجاعة قيادتها ومقاوميها وثبات شعبها والتفافه حول مقاومته في مواجهة غير متكافئة وبقدرات محدودة للغاية- في منع إسرائيل من تحقيق أهدافها رغم ما تكبده القطاع من خسائر بشرية في الأرواح ومادية في الممتلكات، ولكن الأهم من تلك الخسارة هو النصر الذي تحقق، نصر يؤسس عليه

للمستقبل في طريق استعادة الحقوق المغتصبة بعد أن رست قاعدة بالغة الأهمية وهي "عجز القوة الإسرائيلية" عن تحقيق الانتصار، أي تحول استراتيجي في التقدير بين العرب وإسرائيل في الصراع.

التوصيات

في ضوء ما تقدم نوصي بما يلي:

- اتخاذ التدابير الكفيلة بمنع تحقيق إسرائيل المفاجأة الأولى في عملية عدوان جديد، فإسرائيل لن تسكت على الواقع القائم في غزة وهي ستحاول في كل فرصة تلوح لها أن تنتقم لهزيمتها بالانقضاض على القطاع بشكل مفاجئ.
- التوسع في اعتماد مبدأ لا مركزية الإدارة الميدانية للمعركة من قبل المقاومة عبر تخصيص كل منطقة وفي شعاع ضيق قدر الإمكان برجال يكفونها للدفاع عنها، وعتاد وذخيرة يحسن تخزينه فيها بأحجام صغيرة متناثرة.
- التركيز على العمل والتحضير الذاتي للصواريخ المصنعة محلياً في ظل استمرار الحصار وإمكانية العودة إليه بشكل مفاجئ.
- بناء المنظومة الشعبية الداعمة للمقاومة والتي تخفف من أعبائها اللوجستية.
- الاسترسال في عمليات التوعية والشحن النفسي للشعب لمنع أي شرخ بينه وبين المقاومة.
- الثبات في المواقع وعدم إخلاء الميدان واعتماد منطق الحرمة الدائمة في الميدان للحماية والانقضاض.
- بناء منظومة إعلامية ذات حرفية ومصداقية عالية.